

الفصل الخامس

نحو سياسة هادئة

١- محاولة انقلاب كيان وسياسة إييتسونا اللينة :

فى أبريل ١٦٥١م توفى الشوجون الثالث إييميتسو متأثراً بمرضه ، وبعد ذلك بثلاث أشهر فقط، أى فى يوليو من نفس العام حدثت محاولة انقلاب قادها اثنان من الساموراي المتقاعدين (Ronin) وهما يوى شو - شو ستسو Yoisho Shosetsu (١٦٠٥م - ١٦٥١م) وماروباشى تشويا Marubashi Chūya (؟ - ١٦٥١م). وقد انتهز هذان الساموراي موت الشوجون القوى إييميتسو وتولى ابنه إييتسونا (Ietsuna) منصب الشوجونية وهو لم يزل فى الحادية عشرة من عمره، فخططا لإحداث ثورة عارمة قادا خلالها أكثر من ألفين من الساموراي المتقاعدين الفقراء لإسقاط الباكفو، فقام الثوار بإشعال النيران فى مخزن كبير للأسلحة والذخائر، ولسوء الحظ كانت الرياح فى تلك الليلة شديدة للغاية مما ساعد على انتشار النيران. وقاموا كذلك بإطلاق النيران على مستشارى الشوجون ومساعدتهم عند محاولة هؤلاء الصعود إلى قلعة أيدو، كذلك حاول الثوار اقتحام القلعة ولكن محاولتهم هذه باءت بالفشل، وقد أطلق على هذه المحاولة اسم «حادثة كيآن» نظراً لأنها حدثت فى العام الرابع من التقويم الإمبراطورى كيآن، وقد كان لها تأثيراً كبيراً على سياسة الشوجون إييتسونا كما سنرى فيما بعد، وبعد

فشل المحاولة تم القبض على أحد مدبرى المحاولة وهو ماروباشى وتم صلبه. أما زميله شوستو فقد انتحر على طريقة الهاراكيرى، وبعد فشل هذه المحاولة تم عقاب العشرات من الساموراي الذين اشتركوا فيها إما بالصلب أو بدق أعناقهم.

وعلى الرغم من أن مدبرى هذه المحاولة كانوا يتوقعون عدم نجاحها فقد أقدموا عليها وذلك لمحاولتهم تغيير الواقع الأليم الذى يعيشه المئات من الساموراي المتقاعدين الفقراء الذين تزايد عددهم بسبب تطبيق قانون التحكم فى المحاربين الذى تحدثنا عنه آنفاً. ففى مذكرات مدبر المحاولة شوستسو يقول : «إن ما قمنا به من ثورة لا يعنى أننا بذلك سوف نستطيع أن نسقط الشوجون الرابع، ولكن قمنا بذلك بعد أن أيقنا أن سياسة الدولة بلا أخلاق والناس يقاسون من الفقر المدقع، ولذلك لم يهمننا ما سوف يحدث لنا مع استمرار سياسة الباكفو طويلاً على هذا الحال».

إذن لقد وصل الحال بعدد كبير من الساموراي المتقاعدين وغيرهم من الناس إلى وضع مأساوى سوف يجعل الباكفو تتخذ سياسة جديدة تهدئ من أوضاع البلاد وتحاول إرضاء هؤلاء المحاربين والدايميوات الغاضبين الذين انقطع عن كثير منهم الرواتب والعطايا التى كانت الباكفو تبذلها لهم، كذلك كان على الباكفو أن توقف سياسة القمع نحو الساموراي المتقاعدين. وبدلاً من ذلك عملت على تطبيق سياسة تقوم على القوانين والنظم وليس على أساس القمع واستخدام السلاح.

وقد ساعد الشوجون الرابع طوكوجاوا إيبيتسونا (Ietsuna) (١٦٤١م - ١٦٨٠م) فى تطبيق هذه السياسة أن الأوضاع فى البلاد أخذت تستقر وبدأ رويدا

وذلك بعد انتهاء ثورة شيمابارا والتمكن من الفلاحين وإخضاع ثوراتهم، وكذلك نجاحها فى تطبيق سياسة العزلة. ومن أهم القرارات التى اتخذها إبييتسونا هو تعديل قانون التحكم فى المحاربين وكذلك منع أخذ الدايميوات كرهائن وغير ذلك من القرارات التى أيدت سياسة اللين، غير أن مثل هذه القرارات وغيرها لم يكن لإبييتسونا اتخاذها بدون معاونة من بعض المحيطين به بسبب صغر سنه حينما تولى الشوجونية حيث لم يكن يتعدى الحادية عشر من عمره، وهؤلاء معاونون هم المستشار الأكبر ساكاي تاداكاتسو Sakai Tadakatsu (١٥٨٧م - ١٦٦٢م) والمستشار ماتسودايرا نوبوتسونا Matsudaira Nobutsuna (١٥٩٦م - ١٦٦٢م) وكذلك عمه هوشينا ماسايوكي Hoshina Masayuki (١٦١١م - ١٦٧٢م). ومن ضمن المشاكل التى عاون فيها هؤلاء الثلاثة الشوجون الرابع إبييتسونا فى حلها مشكلة منع كبار رجال الدولة من محاربين عظماء ودايميوات وغيرهما من تبنى ساموراى صغار فى أواخر أيامهم فى الحياة لعدم إنجابهم مما كان له الأثر الكبير فى تزايد عدد الساموراى المتقاعدین والذى بالتالى أدى إلى ثورة كيآن التى سبق وتحدثنا عنها. ولذلك وجدوا أنه لا بد من التخفيف من هذا التحريم، وعليه تم السماح لهؤلاء العظماء اتخاذ أبناء بالتبني إذا ما كان هذا الرجل ما زال دون الخمسين من عمره. أما إذا تعدى الخمسين فلا يسمح له بذلك، وبذلك استطاعت الياكفو تجنب ظاهرة تكاثر الساموراى المتقاعدين الذين كانوا يعانون من الفقر والبطالة مما كان يسبب الكثير من المشاكل للياكفو.

ولكن مهما كانت أهمية القرارات التى جاءت ضمن قانون التحكم فى المحاربين المعدل الذى أصدره الشوجون إبييتسونا فى عام ١٦٦٣م

فهي في الحقيقة تتضائل في رأينا أمام أمر تحريم عادة انتحار التابع لدى وفاة سيده، تلك العادة السيئة التي كانت سائدة منذ زمن بعيد في اليابان. وفي الأصل كانت هذه العادة تجعل زوجة السيد هي أول من تنتحر وتتبعه إلى العالم الآخر، ولكن بعد ذلك انتشرت هذه العادة في عالم الساموراي أيضا، وقد كان الاعتقاد بين الساموراي قبل عهد إيبيتسونا أن انتحار المحارب لدى وفاة سيده هو عمل من أعمال الإخلاص والوفاء لهذا السيد فاعتقدوا أن هذه عادة جميلة تحسن من صورة المحارب ولا تسيء إليه، ولكن إيبيتسونا عندما حرم هذه العادة جاء في تعليل ذلك أن هذه العادة غير أخلاقية، ولا طائل منها على الإطلاق ويجب الابتعاد عنها، وإنه إذا أقدم التابع على الانتحار بعد وفاة سيده فإن هذا يعني أن تعاليم وأوامر سيده لم تكن كافية وعليه تُحسب سقطة على هذا السيد، ولم ينسحب الأمر على السيد فقط بل على أبناء هذا السيد أيضا لأنهم لم يحاولوا منع الأتباع من الانتحار. وقد أقدم إيبيتسونا على تحريم هذه العادة نظرا لتتابع حوادث الانتحار بسبب موت الأسياد، فقبل اثني عشر عاما من هذا التحريم ولدى وفاة الشوجون الثالث إيبيمتسو أقدم على الانتحار مستشاره هوتا ماساموري Hotta Masamori (١٦٠٨م - ١٦٥١م) على الرغم من صغر سنه ورجاحة عقله المفروضة فيه على أساس أنه وصل لهذه الوظيفة الرفيعة في الباكفو، وكذلك انتحر من أجل وفاة ذات الشوجون المحارب أبي شيجي تسوجو Abe Shigetsugu (١٥٩٨م - ١٦٥١م) وكذلك اتبع نفس الخطوة عدد من المقربين للشوجون، وقبل هذه الحادثة وفي عام ١٦٣٦م (١٣ من كاني) أقدم خمسة عشر من أتباع المحارب والبطل الشهير

داتى ماسامونى Date Masamune (١٥٩٧م - ١٦٣٦م) على الانتحار، بل وقام خمسة أشخاص آخرين بالانتحار قبل انتحار الخمسة عشر تابعا السابق ذكرهم، وفى عام ١٦٤١م قام تسعة عشر شخصا من أتباع سيد مقاطعة كوماموتو هوسوكاوا تاداطوشى Hosokawa Tadatoshi (١٥٨٦م - ١٦٤١م) بالانتحار بسبب وفاة سيدهم.

وبرغم صدور هذا الفرمان بتحريم انتحار الأتباع من أجل سيدهم فلم تتوقف هذه العادة السيئة فى اليابان بصرف النظر عن مدى رجاحة عقل المقدم عليها، بل إننا رأينا كيف أن رجلا بوزن الجنرال نوجى مارى سوكى Nogi Maresuke أقدم على الانتحار مع زوجته لدى وفاة الإمبراطور مييجى فى عام ١٩١٢م، وذلك على الرغم من أن هذا الرجل كان يعد من أعظم الجنرالات الذين أبلوا بلاء حسنا فى الحرب اليابانية الروسية - كما ذكرنا فى كتابنا عن عصر مييجى - وهذا إن دل على شىء فهو يدل على مدى صفة الوفاء التى كان يتمتع بها اليابانيون قديما، وربما حتى اليوم.

ولا يمكن الانتهاء من الحديث عن عهد الشوجون إبييتسونا دون ذكر حريق أيدو الرهيب أو ما يطلق عليه أيضا فى المراجع اليابانية «بحريق ميريكى الكبير» Meireki Notaiكا الذى حدث فى عام ١٦٥٧م فى شهر يناير حيث كانت أجواء الاحتفال بالعام الميلادى الجديد ما تزال حية بين سكان إيدو، وقد تسبب هذا الحريق الهائل فى احتراق حوالى ٦٠٪ من مدينة إيدو، ووصل عدد الضحايا من الموتى ١٠٢ ألف مواطن، وكان أثر هذا الحريق عميقا على مواطنى عاصمة الباكفو ومسئوليهيها فقد بدأت عملية تطوير واسعة للمدينة واستعادة الحياة الطبيعية استلزمت

جهودا مضية من كل فرد بالمدينة القلاعية ، وحتى تتفادى حكومة الباكفو أخطار الحريق داخل قلعة إيدو فقد قامت بنقل مقرات وقصور الدايميوات خارج حرم القلعة ، كذلك اضطر الدايميوات أن يقيموا قصورهم فى الأراضى التى يمتلكونها فى الضواحي مما أدى إلى انتعاش مناطق جديدة بعيدا عن مركز العاصمة ، أما داخل العاصمة فقد قامت الباكفو بفتح الطرق الواسعة ومد الجسور على الأنهار الكبيرة مثل نهر سوميدا جاوا وغيره من الأنهار التى تتدفق فى المدينة وحواليها ، وخطت الباكفو لتوسيع مدينة إيدو فأصبحت تحتوى على أحياء عديدة متطورة . وقد اكتوت العاصمة بعد ذلك وطوال عصر إيدو بما يزيد عن ثمانين حريقا كبيرا من أشهرها حرائق أعوام ١٦٨٢م و ١٧٧٢م وغيرها وبسبب كثرة الحرائق الناتجة عن تلاصق البيوت المصنوعة من الخشب ، وكذلك وبسبب قصر بال سكان إيدو بسبب الزحام الشديد ولد مثل شعبي شهير يقول «إن الحرائق والمشاحنات هى من أهم ما يميز مدينة إيدو» وتشترك مدينة إيدو مع مدينة أوساكا وكيوطو فى تكوين ثلاثى المدن الكبرى فى اليابان آنذاك (Santo) واللتين عانتا أيضا من نفس المشكلة . وبصرف النظر عن ثورة كيآن التى استهل بها الشوجون الرابع إييتسونو حكمه وحريق إيدو الرهيب ، وبعض المنغصات من بعض المستخدمين من الساموراي وتصرفاتهم العجيبة التى أدهشت أهالى أيدو خلال ثلاثين عاما هى مدة حكم الشوجون إييتسونو ، فقد مضت هذه الفترة بسلام وذلك بفضل المعاونين الثلاثة للشوجون والذين ذكرناهم آنفا .

٢ - الشوجون الخامس تسونايوشى غريب الأطوار :

عندما توفى الشوجون الرابع إييتسونا فى عام ١٦٨٠م لم يكن لديه ولدا يخلفه ، فتولى أخوه الأصغر تسونايوشى الشوجونية ، وكانت معظم الفترة التى تولى فيها تسونايوشى تدعى أيضا جنروكو ، وهى تلك الفترة التى كان فيها هيجاشى ياما إمبراطورا على اليابان أى منذ عام ١٦٨٨م - ١٧٠٤م. وعلى الرغم من أن فترة جنروكو هذه تميزت بازدهار العلم والأدب بسبب تشجيع الشوجون تسونايوشى للعلوم وبخاصة العلوم الكونفوشيوسية ، إلا أنه بسبب عطفه وحببه الشديدين للحيوانات فقد سبب ذلك للمواطنين أذى ومشاكل عديدة.

أطلق على الشوجون تسونايوشى لقب «موظف الكلاب» وذلك لعنايته الشديدة بالكلاب وعطفه عليها إلى جانب عطفه على الكثير من المخلوقات الأخرى كالأسماك والقطط وحتى الناموس ، ولذلك أصدر تسونايوشى فى عام ١٦٨٥م فرمانا يحرم قتل الحيوانات ومعاملتها معاملة حسنة وعلى الأخص الكلاب نظرا لأنه ولد فى عام الكلب.

أما السبب الرئيسى الذى أصدر من أجله تسونايوشى هذا فرمان الغريب هو أنه كان لديه ابن اسمه طوكوماتسو توفى صغيرا ، ولم يبق له أبناء ذكور بعد ذلك ، فنصحته الراهب البوذى ريوكو Ryūkō (١٦٤٩م - ١٧٢٤م) بأنه إذا ما اهتم بالحيوانات وغيرها من المخلوقات فسوف يرزق بابن يخلفه فى الحكم ، فأخذ تسونايوشى بنصيحة الراهب وأصدر فرمان السابق ذكره ، وهو أن يحرم قتل الحيوانات مثل الكلاب والقطط والأسماك والقواقع ويمنع كذلك بيعها ، وكذلك يمنع استخدام تلك التى يمكن تناولها فى الطعام ، ومن يقوم بقتل هذه الحيوانات وعلى الأخص الكلاب يحكم عليه بالإعدام.

ومن الأمثلة التي تدل على تطرف تسونايوشى فى تطبيق هذا الفرمان الغريب أنه قام بنفى محارب من فئة الهاطومو طو إلى جزيرة هاتشى جو التى تبعد عن مدينة إيدو ثلاثمائة كيلو متر فى عرض البحر، وكذلك عاقب تابعه بالموت بقطع رقبتة لأن هذا التابع طارد كلبا بسيف خشبى وقتله خطأ ، وهناك مثل آخر على تطرف هذا الشوجون فى معاقبة من يقتل أو يؤذى كلبا، فقد حدث أن تربع كلب فى عرض الشارع ومنع عربة يجرها ثمانية رجال، وحدث أن أخطأ بعض منهم ودفع بالعربة فقتل الكلب فما كان من الشوجون إلا أن أصدر أمرا بإعدام الرجال الثمانية من أجل نفوق هذا الكلب المتغطرس الذى لم يحاول إنقاذ نفسه بالابتعاد عن العربة، وليس الكلاب فقط بل إن الاهتمام امتد حتى يرقات الناموس، فقد تم منع تنظيف مياه المجارى لمجرد أن هذه العملية تؤدى لموت هذه اليرقات !!

ونظرا للاعتقاد الشديد بالكلاب وحمل تلك التى تمرض منها إلى طبيب مختص بعلاجها، فقد تزايدت أعدادها بدرجة كبيرة حتى قيل إن عدد الكلاب الضالة وصل إلى خمسين ألف فى مدينة إيدو وحدها، ولذلك تم إنشاء أماكن لإيوائها فى يوتسويا وأكويو وناكانو، وكانت تكاليف إيواء وإطعام هذه الكلاب باهظة، وهذا ما أرهق سكان إيدو والمقاطعات التى حولها بسبب الضرائب التى فرضت عليهم من أجل العناية بهذا العدد الكبير من الكلاب هكذا أتعب الشوجون تسونايوشى أهالى مدينة إيدو وما حوالىها من مدن بقراراته الغريبة مما يذكرنا بالخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله الذى أتعب أهل القاهرة بأوامره الغريبة فى القرن الحادى عشر ويتشابه أيضا مع تسونايوشى فى أنه

كان فى بداية حكمه يتقانى فى خدمة البلاد والعمل على ازدهارها وهكذا بدا متناقضا كما نرى من تناقض تسونايوشى حيث ازدهرت أيضا فى عصره اليابان فى مختلف المجالات.

ومن أكبر المساوئ التى ارتكبتها نظام الشوجون تسونايوشى هو إنتاجه للنقود الرديئة، وفى عهد إيباسو كانت تصنع نقودا جيدة لا يخلط فيها الذهب بالفضة والنحاس، ولكن فى عهد تسونايوشى اتجه لأسباب عديدة سوف نذكرها فيما يلى لإنتاج نقود مزورة خلط فيها كميات كبيرة من النحاس والفضة مع الذهب مما جعل الباكفو تستطيع صنع كميات ضخمة من النقود أدت بالتالى إلى زيادة دخلها، وكان الذى اضطر الباكفو إلى ذلك انخفاض إنتاج الذهب بدرجة سريعة من مناجم الذهب والفضة التى اشتهرت بها اليابان منذ القدم، كذلك كان لحريق ميريكى الكبير الذى تحدثنا عنه آنفا أثره الشديد على الاقتصاد الباكفو نظرا للتكاليف الباهظة التى أنفقت من أجل إعادة بناء مدينة أيدو وكذلك للمساعدات المالية التى بذلتها الباكفو للدائميوات ومحاربى الهاتامو و إلى جانب ذلك ساهم أيضا الشوجون تسونايوشى فى إضعاف اقتصاد الباكفو بسبب الصرف ببذخ على حياة الرفاهية التى كان يحياها.

وبالطبع أدى خروج مثل هذه النقود الرديئة إلى حدوث تضخم كبير فى الأسواق فارتفعت الأسعار، وعلى عكس ما توقعت الباكفو فقد أدى هذا إلى إضعاف اقتصادها وكذلك أرهق فى ذلك كل من الساموراي وسكان المدينة.

٣ - عصر الجنروكو

يمثل عصر الجنروكو (Genroku Jidai) النصف الثاني من فترة حكم الشوجون تسونايوشي تقريبا. وعلى الرغم من غرابة أطوار تسونايوشي فإن شهرة عصر الجنروكو فاقت كثيرا شهرة الشوجون الخامس، وذلك لما عرف عن هذا العصر من تقدم وازدهار في مختلف مناحي الحياة سواء صناعية أو زراعية أو تجارية أو معمارية أو حتى ثقافية.

فمع تطور مدن مثل أيدو وأوساكا وغيرها من المدن القلاعية ومدن الموانئ في مختلف أنحاء البلاد تولدت الحاجة لإنتاج منتجات كثيرة تلبى احتياجات حياة سكان هذه المدن، وإذا كان معظم هذه الاحتياجات هي الغذاء والملابس فهي في معظمها ترجع إلى مواد خام زراعية، ولأن الخضراوات الطازجة هي إحدى المواد الغذائية الهامة لسكان المدن الكبيرة المتطورة، فكان على الباكفو التوسع في زراعتها حوالى هذه المدن، وبالطبع كان هذا يتطلب أيضا تقنية زراعية متقدمة، وكذلك تحسين وتطوير الآلات الزراعية، وكذلك الأسمدة وغير ذلك من متطلبات الزراعة، فمثلا كانت عملية درس الحبوب قبل عهد جنروكو تتم يدويا، ولكن في هذا العصر تم اختراع آلة خاصة يمكنها درس كميات كبيرة من الحبوب، وتم اختراع آلات أخرى تجعل من العمليات الزراعية أكثر سهولة وأغزر محصولا.

ومن ناحية التوسع الأفقى أى إنشاء حقول جديدة نجد أنه فى حين كانت مساحة الأراضي الزراعية فى كل أنحاء اليابان إبان عهد طويوتومى هيديوشى أى فى نهاية القرن السادس عشر نحو مليون وأربعمائة وتسعين ألف هكتار، فإن هذه المساحة تضاعفت فى بداية

القرن الثامن عشر إلى مليونين وتسعمائة وأربعين ألف هكتار، أى منذ فترة جنروكو فى نهاية القرن السابع عشر وحتى فترة كيوهو وهى المدة من عام ١٧١٦م إلى عام ١٧٣٦م، أى أن هذه الزيادة الكبيرة حدثت فى أقل من نصف قرن.

وترجع هذه الزيادة الكبيرة إلى تنفيذ الباكفو لعدة مشاريع زراعية كبرى، وإنشاء أكثر من دلتا زراعية عند مصبات الأنهار، هذا إلى جانب إنشاء حقول جديدة بتخطيط جيد حول البحيرات والمستنقعات.

وفى الحقيقة أن كل هذه المشروعات لم تكن تجدى شيئا بدون فلاحين مجتهدين يبذلون كل جهدهم من أجل زيادة إنتاجهم الزراعى فلم يألوا جهدا من أجل استصلاح الغابات القريبة من قراهم، وكذلك تمهيد الأراضى البور لتصبح صالحة للزراعة.

وإذا كان الفلاحون يبذلون جهدهم من أجل زيادة الإنتاج فلم يكن لهذا الجهد أن يثمر شيئا دون رأسمال يكون فى خدمة المشاريع الكبرى وتنفيذها، وكان الكثير من أموال هذه المشاريع تُضخ عن طريق الأغنياء من سكان المدن الكبيرة مثل إيدو وأوساكا وغيرها من المدن، ولذلك سميت هذه المزارع بالحقول الجديدة المتعاقد عليها مع أغنياء المدينة.

ومع تطور أوضاع الزراعة بشكل عام ومع الإنتاج المتزايد من المحاصيل استطاع الفلاحون بيع الفائض من محاصيلهم المختلفة والحصول على النقود التى لم تكن موجودة فى الريف قبل ذلك إلا فى أضييق الحدود، وظهرت أيضا فى الريف فئة من الفلاحين الذين يعملون بالتجارة استطاعت أن تكنز الكثير من النقود التى أتاحت لها فرصة شراء أراضى الفلاحين الفقراء، وبذلك تضخمت ثروتها، وقد كان لتطور

المدن القلاعية والمدن الساحلية التي تضم موانئ هامة مثل إيدو وأوساكا وتقدم أنماط الحياة لسكان هذه المدن تأثيره في زيادة الطلب على كثير من المنتجات من مأكّل وملبس التي تأتي معظمها من مواد زراعية، وتأتي الخضراوات الطازجة في مقدمة هذه المواد مما تطلب زراعتها في الريف المجاور لتلك المدن الكبرى، وعليه فقد اتسع نطاق هذا الريف رويدا رويدا، وإلى جانب ذلك فقد تطلب هذا الاتساع في رقعة الأرض الزراعية إلى تطوير التقنية الزراعية سواء كان ذلك في اختراع أدوات زراعية جديدة أو استنباط أنواع جديدة فعالة من الأسمدة، والأهم من ذلك أنه منذ عصر الجنروكو بدأت الباكفو في تنفيذ مشاريع تخدم العملية الزراعية كما أسلفنا القول.

ومن أشهر الصناعات التي شهدت تطورا ملموسا في عهد جنروكو تربية دودة القز لإنتاج الحرير الطبيعي وصناعة الأقمشة الحريرية، وذلك في أكثر من مقاطعة في كل أنحاء البلاد وكذلك تطورت صناعة الأقمشة القطنية نظرا للتوسع في زراعة القطن وذلك لرخص سعره بالمقارنة بالأقمشة الحريرية ومناسبته لمعظم المواطنين، وكانت معظم الملابس حتى منتصف عصر موروماتشى (منتصف القرن الخامس عشر) تُصنع من الكتان، ولكن مع بدء زراعة القطن باليابان منذ تلك الفترة أصبحت معظم الملابس تصنع من القطن، وذلك لأن القطن له لمسة ناعمة دافئة على الجسم وكذلك يمكن صبغه بعدد من الألوان بسهولة.

كذلك تقدمت صناعة النبيذ، وكانت كميات ضخمة من الأرز تتجمع في مدينة أوساكا من كل أنحاء اليابان ويتم تصنيعها في مناطق عديدة في هذه المدينة الكبيرة، وأصبحت منطقة إيتامى Itami تفتخر بأنها

تنتج أكبر كمية من النبيذ في اليابان، واشتهرت كذلك ثلاث مناطق بمدينة كوبى بأنها تمد عاصمة الباكفو بحوالى ٦٠٪ من احتياجاتها من النبيذ هي نيشى نومييا وإيماتسو ونادا.

أما الصيد فكان معظمه يتم بالقرب من الساحل وليس فى عرض البحر، وكانت أهم أنواع الأسماك وأكثرها هى التونة والسردين، وكان الصيد يتم بطريقتين:

الأولى: تعتمد على استخدام السنارة وكان يتم بها صيد أسماك البنيت (نوع من التونة).

الثانية: تعتمد على الشبكة وكان يتم بها صيد السردين. كذلك كان يتم صيد كميات كبيرة لا بأس بها من سمك الشبوط والاسقربوط وكان للصيد طرق معينة للإدارة، حيث كان هناك ملاك للشبك (Amimoto) ويتبعهم عدد كبير من صغار الصيادين (Amiko) وكذلك كان هناك عدد صغير من ملاك مراكب الصيد الكبيرة (Funanushi) ويتبعهم عدد كبير من المراكبية (Funako) الذين يقومون بقيادة هذه المراكب.

وشهدت الحراجة تطورا سريعا وذلك للطلب الهائل للأخشاب من أجل الإنشاء حيث من المعروف أن اليابان منذ القدم تعتمد على أخشاب الغابات فى إنشاء البيوت والقصور وحتى المعابد، وفى منتصف عصر إيدو والذى يمثله فترة جنروكو وما قبلها وبعدها بقليل زاد عدد تجار الجملة للأخشاب ووصلوا بنشاطهم إلى جزيرة إيزوتشى (هوكايدو).

وأشهر الغابات فى اليابان موجودة فى مقاطعات أوارى (إيتشى) وأكيتا وناجانو، وفى هذه المقاطعات قطع تجار الجملة الأخشاب

وتاجرو بها، واشتهر من بين الأخشاب سرو-كيسو وأرز أكيتا كذلك كانت تستهلك كميات كبيرة من الحطب والفحم كوقود فى المدن وقرى الضواحي.

ونظرا لأهمية الملح فقد تطورت صناعته بدرجة كبيرة وزاد إنتاجه بدرجة خاصة فى منطقة أكو (Ako) فى هاريمبا (منطقة فى جنوب غرب محافظة هيوجو الحالية) واعتمدت صناعة الملح آنذاك على تقنية صناعية عالية كانت تتطلب تكاليف باهظة، وكانت تدعى حقول ملح الشواطئ.

والتعدين أيضا شهد تطورا ملحوظا ليس فقط منذ عهد إيدو ولكن أيضا قبل ذلك منذ عصر الحروب (١٤٧٧م - ١٥٧٣م) وذلك تماشيا مع الزيادة على الطلب على سك النقود فتقدمت تقنية استخراج المعادن وتنقيتها، وازدهرت عمليات استخراج الذهب والفضة من مناجم دو للذهب (فى محافظة نيجاتا) وأيوامى (غربى محافظة شيمانى) للفضة ومنجم تاجيما إيكونو (Tajima Ikuno) للفضة (محافظة هيوجو) وغيرها من المناجم التى اشتهرت بإنتاج الذهب والفضة فى اليابان منذ القرن الرابع عشر، ولكن هذا الإنتاج ظل يتناقص تدريجيا كما ذكرنا آنفا، ومنذ منتصف القرن السابع عشر أخذت الياكفو تهتم باستخراج النحاس، وتم استخراج كميات كبيرة من خام النحاس من منجم أشيئو الذى تم اكتشافه فى فترة كيتشو (حوالى ١٥٩٦م - ١٦١٥م) وقد تحدثنا عنه وعن مشاكله البيئية فى كتابنا السابق، وغيره من مناجم النحاس وذلك من أجل سد حاجة الدولة من النقود النحاسية وكذلك للتصدير.

ومن تراب الحديد الذى اكتشف فى منطقة إيزومو Izumo تم صنع

الحديد الصلب الذى بالتالى استخدم فى صنع السيوف والآلات الزراعية والصناعية. أما الحديد العادى فقد تم صنعه من حجر الحديد وتم تصنيعه لأول مرة فى الفترة الأخيرة من عصر إيدو فى أفران عالية تستخدم الفحم لصهر الحديد وذلك فى منطقة كاما إيشى (مدينة تقع فى شرق محافظة إيواتى)، أما الفحم الحجرى فقد تم استخراجة فى منطقة تشيكو هو Chikuhō (محافظة فوكوأوكا).

٤- ثقافة جنروكو :

كانت ثقافة الجنروكو هى أهم ما ميز هذا العصر. وهى تلك الثقافة الرفيعة التى ازدهرت فى المدن الثلاث الكبرى كيوطو وأوساكا وإيدو فى الفترة ما بين عامى ١٦٨٨م و١٧٠٤م، وكان فى خلفية هذه الثقافة عدة عوامل ساعدت على تطورها وازدهارها، وهذه العوامل يأتى فى مقدمتها جهود الشوجون الخامس طوكوجاوا تسونايوشى وسياسته من أجل تطوير العلوم والثقافة، وكذلك تقدم المدن الثلاث الكبرى والنشاط الكبير الذى حدث فى مجال النشر والطباعة وغيرها.

وفى الحقيقة أن معظم الأعمال الأدبية الشهيرة التى تنتمى لعصر إيدو والتى ما زالت تقرأ حتى يومنا هذا أنجزت فى فترة جنروكو. فقد كتب الأديب إيهارا سايكاكو Ihara Saikaku (١٦٤٢م - ١٦٩٣م) مجموعة قصص تدعى Ukiyo Zōshi تناول من خلالها بمهارة شديدة نقد المجتمع اليابانى آنذاك، وكذلك التعبير عما يدور بصدور الناس ومشاعرهم بصدق شديد، وتناول أيضا فى قصص أخرى حياة سكان المدن وأحوالهم، والأهم من ذلك أنه قام بتشريح طبقات المجتمع اليابانى

الأربعة والتي سادت طوال عصر إيدو تقريبا ، وقد ذكرناها آنفا ولكن للتذكير بها ، فهي المحاربون ثم المزارعون ثم الحرفيون أو الصناع ثم يأتي في ذيل القائمة التجار. وقد قُسمت هذه الطبقات بهذا الترتيب منذ أوائل عهد إيدو على أساس مدى أهمية وسمو مهنة صاحبها فأتى التجار في ذيل القائمة على اعتبار أنهم أقل الطبقات بذلاً للجهد والعطاء وذلك بصرف النظر عن فقرهم أو ثرائهم. ويقول سايكاكو في إحدى قصصه ، «لا يتغير تفكير أحد من الناس وأسلوبه في الحياة. فالذى يشهر سيفه فهو محارب ، والذى يتقلد إبوشى Eboshi (قبعة خاصة برهبان المعابد السننتوية) والذى يرتدى الكيمونو الأسود فهو راهب في معبد بوذى . والذى يقبض بيده على فأس فهو فلاح والذى يستعمل الشاكوش فهو حرفي ، والذى معه صوريان (آلة يدوية للحساب) فهو تاجر والمهم أن الكل يؤدي عمله باجتهاد» ، هكذا فصل إيهارا سايكاكو بين الطبقات الأربعة إلى جانب ذكره لطبقة أخرى هامة وهي طبقة الرهبان سواء البوذيين أو الشنتويين . ويؤكد سايكاكو من خلال أعماله على أن قيمة الشخص لا تنبع من حربه أو نسبه ولكنها تأتي من ما يملكه هذا المواطن من ذهب وفضة ، وبالطبع يقصد سايكاكو هنا التجار الذين كانوا أغنى طبقات المجتمع في فترة جنروكو. وبفضل الروح الوثابة والواثقة بنفسها استطاع سكان المدن من التجار إعطاء دفعة قوية للفنون وبشكل عام سواء كانت فنون جميلة أو مسرح وبذلك ولدت ثقافة المدينين لعصر جنروكو الزاهر . ومن الجدير بالذكر أن سايكاكو لو كان أول من بدأ في كتابة قصص ال Ukiyo Zōshi في عام ١٦٨٢م واستمر هذا النوع الفريد من القصص يكتب حتى عام ١٧٧٢م أى ما يقرب من تسعين عاما .

ولم يتناول هذا النوع من القصص حياة وأحوال التجار فقط بل تطرق إلى نوعيات أخرى كثيرة من سكان المدن الكبيرة وعلى الأخص مدينة أوساكا ، مثل عازفي الشاميسن (آلة تشبه الربابة) والمحاربين وقصص الأبناء والبنات والأعمام والمعشوقات وغير ذلك من أنماط البشر فى ذلك الزمان ، هذا إلى جانب قصص الأشباح وغيرها من القصص المرعبة .

ويعد الشاعر ماتسو أو باشو Matsuo Bashō (١٦٤٤م - ١٦٩٤م) من أشهر شعراء الهايكو، وهو أحد أشكال الشعر اليابانى القديم الذى كان يتسم بالفكاهة ، ولكن باشو استطاع أن يفتح لهذا اللون من الشعر طريقا جديدا يتسم بعمق الفكرة واحتواء الشعر على فلسفة ذات جدوى ، وذلك بعد أن درس باشو هذا الشعر دراسة وافية عندما رحل من بلده فى محافظة ميبى كين (Mie Ken) إلى إيدو، وبعد أن بلغ الأربعين من عمره ترك حياة الاستقرار واتجه إلى مواصلة رحلاته عبر البلاد، وأثناء تلك الرحلات كتب مذكرات فى الرحلات رائعة تسمى «الطريق الضيق البعيد» فى عام ١٦٨٩م أى فى العام الثانى من فترة جنروكو. وهذه المذكرات هى التى تحوى أشهر أشعار الهايكو، وفى عام ١٦٩٤م (٧ من جنروكو) كتب بيت شعر الهايكو الشهير « لقد أمرضنى الترحال وجف الحلم» ثم توفى وهو فى عمر الحادية والخمسين.

أما شكسبير اليابان تشيكاماتسو مون زايمون Chikamatsu Monzaemon (١٦٥٣م - ١٧٢٤م) فقد اشتهر بكتابة مسرحيات الجورورى Jōruri ومسرحيات الكابوكى وكذلك مسرحيات Kyōgen وتميز تشيكاماتسو باستخدام المشاعر الإنسانية بمهارة شديدة فى كتابة مسرحياته ، وهو يمثل مع الأدبيين السابق ذكرهما أضلاع المثلث الذى

يعتبر الأساس لثقافة الجنروكو، ومن أهم مسرحياته «منتحرى صونى زاكى» وهى مسرحية كتبها فى عام ١٧٠٣م (١٦ من جنروكو) وقد اتخذ من حادث حقيقى أنتحر فيه اثنان من المحبين فى أوساكا حبكة المسرحية، وكتب أيضا مسرحية «بوسطجى العالم الآخر» وهى أيضا تتخذ من قصة حب حبكة لها.

أما النواحي العلمية والفكرية فقد قامت على عاتق المحاربين فتخصصوا فيها، وفى حين أخذ سكان المدينة من التجار على عاتقهم إعطاء الحياة نكهة من المتعة فكانت ثقافتهم تقوم على الرفاهية، فاشترتوا بأموالهم التى اكتسبوها أشياء ثمينة وأكلوا طعاما شهيا وبين الحين والحين كانوا يذهبون لدور المسرح ليتمتعوا بمشاهدة مسرحيات الكابوكى والجنوروى والكيوجن، وهى فى معظمها مسرحيات هزلية تجلب المتعة والفرح إلى مشاهديها.

أما العلوم فى عصر إيدو فقد قامت على أساس التعاليم الكنفوشوسية وكان ذلك بسبب أن هذه التعاليم تجعل من الشوجون قمة المجتمع، وهى كذلك تتيح للشوجون وللطبقة الحاكمة العليا امتيازات عديدة تجعلهم يقبضون بيد من حديد على الفئات الأخرى من المجتمع. وقد كان الشوجون الخامس تسونايوشى والذى يقع فى عصره فترة جنروكو التى نتحدث عنها - يحب العلم وعلى الأخص العلوم الكنفوشوسية وكان يقرأ العديد من كتبها- وكان كذلك يستمع بإنصات إلى محاضراتها، وكان إلى جانب ذلك يجمع الدايميوات والمحاربين ويلقى بنفسه عليهم المحاضرات فى الكنفوشوسية. وفى عام ١٦٩١م (٤ من جنروكو) أنشأ تسونايوشى معبدا رائعا لتبجيل كونفوشوس، وفى هذا المعبد أو القاعة

الكبرى كانت المحاضرات عن الكونفوشيوسية تتم على يد علماء كبار، وقد حازت الكونفوشيوسية الجديدة على حماية خاصة من الباكفو، ولذلك أخرجت هذه التعاليم الكثير من العلماء، وكان السبب الرئيسى لحماية الكونفوشيوسية الجديدة (Shushigaku) من قبل الباكفو أنها كانت تدعو لدعم المجتمع الإقطاعى والذى كانت تقوم على دعائمه حكومة باكغو إيدو العسكرية.

وقد عين الشوجون تسونايوشى حفيد المعلم الكنفوشى الرسمى للباكفو هاياشى رازان (١٥٨٣م - ١٦٥٧م) وهو هاياشى هوكو Hayashi Hōkō (١٦٤٤م - ١٧٣٢م) فى وظيفة رئيس الجامعة الكونفوشيوسية، هذا العالم قام بنقل مدرسته لتكون بجانب قاعة يوشىما المقدسة حتى تكتمل الصورة البراقة للكونفوشيوسية وبعد ذلك لمدة طويلة من عصر إيدو احتلت هذه العائلة هذه المكانة الرفيعة من كونها راعية للعلم والتعليم.

وقد كان لتطور العلوم الكونفوشيوسية أثره الكبير فى تطور العلوم الأخرى، وذلك لاعتماد الأفكار الكونفوشيوسية على الواقع والموضوعية وليس على الأساطير كما فى الديانات الأخرى وخاصة الشنتوية، وفى علم التاريخ اعتمد على وثائق مؤكدة، وتم الأخذ بأوضاع وأحوال مؤكدة لوصف التاريخ، وقد تم إنجاز عملين تاريخيين عظيمين خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر وأحدهما هو «تاريخ اليابان العظمى» بدأ فى كتابته حاكم مدينة ميتو وهو طوكوجاوا ميتسوكونى Tokugawa Mitsukuni (١٦٢٨م - ١٧٠٠م) وكان فى ذات الوقت عالم كنفوشى.

كذلك أدلى بدلوه فى مجال التاريخ العالم الكنفوشى والسياسى فى ذات الوقت أراى هاكوسيكى Arai Hakuseki (١٦٥٧م - ١٧٢٥م)

فكتب (تاريخ صعود وسقوط الساموراي) وذلك بناء على طلب من الشوجون السادس طوكوجاوا إيبي نوبو (Ienobu) (١٦٦٢م - ١٧١٢م) وهذا الكتاب يعتبر من الكتب الرائدة في نقد التاريخ اليابانى.

وفى مجال العلوم الطبيعية تطورت العلوم التطبيقية مثل العلوم الزراعية والطبية تطورا ملموسا، أما علم الطبيعيات (النباتات والحيوانات) فهو فى الأساس يعتمد على الأعشاب لتكون مصدرا للدواء، وقد أظهر هذا العلم تطورا فى الأبحاث على فعالية الأدوية المعتمدة على مصادر نباتية وحيوانية ومعنوية، وكان للعالمان الكبيران كايبارا أكيكن Kaibara Ekiken (١٦٣٠م - ١٧١٤م) وإينو جاكوسوى Inou Jakusui (١٦٥٥م - ١٧١٥م) دور كبير فى تطور هذا العلم، فقد كتب الأول كتابا أسماه «أعشاب اليابان» والآخر كتب كتابا أسماه «إحصاء مختلف الأشياء».

وفى العلوم الزراعية شرحت المجموعة الزراعية، التى أنجزها عالم الزراعة ميازاكى ياسوسادا Myazaki Yasusada (١٦٢٣م - ١٦٩٧م) الكثير من التقنيات الزراعية وعلى الأخص طريقة زراعة المحاصيل التجارية، وتم استخدام هذه المؤلفات بشكل موسع بين الفلاحين اليابانيين.

وفى علم الحساب الذى كان يعتمد على الطرق الحسابية المأخوذة عن الصين تطورت تطورا سريعا الطرق الحسابية اليابانية على يد علماء مثل يوشيدا ميتسويوشى Yoshida Mitsuyoshi (١٥٩٨م - ١٦٧٢م) الذى أنجز أول كتاب فى علم الحساب فى اليابان وذلك فى عام ١٦٢٧م (Jinkoki). وقدم عالم الرياضيات سيكى تاكازو Seki Takakazu

إنجازات كبيرة في علم الجبر وحساب التفاضل والتكامل، وأجرى أبحاثا عديدة في كيفية قياس مساحة الدائرة، ويعتبر تاكاكازو من العلماء التي تفخر بهم اليابان، ولم يشذ علم الفلك والتقويم عن باقي العلوم، فقد أخذ أيضا عن الصين ولكنه أظهر أيضا تطورا كبيرا في عصر إيدو، وخاصة وأن التقويم والنتائج استخدمت بعمق في العمليات الزراعية وبالطبع كان لعلم التقويم علاقته الوثيقة بعلم الفلك، ولكن الروزنامة التي استعملت منذ عهد هيان كانت على النسق الصيني التي لم توافق حركة الكواكب، وبالتالي لم تعد صالحة للاستعمال في اليابان، وهنا قام العالم الرياضي والفلكي شيبوكاوا شون كاي Shibukawa Shunkai (١٧٣٩م - ١٧١٥م) باختراع تقويم أول روزنامة جديدة في عام ١٦٨٤م يناسب اليابان، وتم إلغاء التقويم الذي كانت تستعمله اليابان منذ عهد هيان (٧٩٤م - ١١٨٥م).

أما في مجال الدراسات الأدبية فقد بدأ البحث الحقيقي في هذا المجال في منتصف عصر إيدو وازدهر في فترة جنروكو، ففي فترة جنروكو ازدهرت روح البحث في الأعمال الأدبية القديمة مثل قصة جنجي ومذكرات طوسا وغيرهما من الأعمال الشهيرة وكذلك ازدهرت حركة إحدات ثورة في شعر الوكا على يد الساموراى المتقاعدين والذين أصبحوا من عامة الشعب، فقد انتقد طودا موصوى Toda Mosui (١٦٢٩م - ١٧٠٦م) الكثير من شعر الوكا وذلك في مجموعته التي أصدرها عام ١٧٠٠م (١٣ من جنروكو) وفي هذه المجموعة النقدية انتقد طودا احتكار عائلات بذاتها تناقل أشعار المجموعة الشعرية القديمة دون غيرهم من الناس، كذلك قام العالم والشاعر كيتامورا كيجين

Kitamura Kigin (١٦٢٤م - ١٧٠٥م) بكتابة شروح مبسطة للأعمال الأدبية القديمة الكبرى مثل قصة الأمير جنجى ومذكرات أدبية عديدة، وقام عالم الأدب الكلاسيكى شيموكوبى ناجارو Shimokobe Nagaru (١٦٢٧م - ١٦٨٦م) بشرح أقدم مجموعة شعرية فى اليابان وتسمى مانيوشو بطريقة سهلة على القارئ اليابانى العادى آنذاك، وهذا اللغوى استطاع الحصول على مساعدة حاكم مقاطعة ميتو طوكوجاوا ميتسوكونى (١٦٢٨م - ١٧٠٠م) والذى كان محبا للعلوم والآداب، وأدى العالم اللغوى كيتشو Keichu (١٦٤٠م - ١٧٠١م) بدلوه أيضا فى دراسة مجموعة شعر المانيوشو والتي تضم أربعة آلاف وخمسمائة بيت من الشعر، ولذلك فلا عجب أن يتناول البحث فى هذه المجموعة الشعرية الضخمة العديد من الباحثين والأدباء فأصدر هذا اللغوى النابغة سلسلة طويلة من أجل شرح هذه المجموعة الضخمة ضمت ٤٩ جزءاً وذلك فى عام ١٦٩٠م (٨ من جنروكو) ثم أهداها لمحب الأدب والأدباء ميتسوكونى امتنانا منه لمساعدته للأدباء والعلماء ولتشجيعه للأعمال الأدبية والنقدية.

وهكذا ومن خلال استعراضنا لمختلف الأنشطة الحياتية فى عصر جنروكو سواء كانت زراعية أو صناعية أو تربية أو ثقافية نجد أن عصر الجنروكو ازدهرت فيه هذه النواحي إلى حد كبير وأبقى العديد من العلماء والأدباء والساسة على كثير من الإنجازات التى ميزت هذه الفترة كثيرا عن الفترات الأخرى. ولذلك نجد أن ما ذكره مساعد الإمبراطور (كانباكو) كونوى ماتوهيرو Kone Motohiro (١٦٤٨م - ١٧٢٢م) فى مذكراته بعد وفاة الشوجون تسونايوشى من أن عصر هذا الشوجون الذى امتد لثلاثين عاما كانت كلها سنوات سوداء بالنسبة لليابانيين فيه

تجنى على هذا العصر فقد شهدت فترة الجنروكو على الأقل ازدهارا فى مختلف نواحي الحياة، هذا ما يجعل شهادة هذا السياسى مجروحة إلى حد كبير.

٥- ساموراى أكو أو الأوفياء Akougishi :

توفى الشوجون طوكوجاوا تسوناىوشى فى عام ١٧٠٩م وقبل ذلك بخمس سنوات فقط انتهت فترة جنروكو فتقاربت النهايتان ولم يشأ هذا العصر الغريب - نقصد عصر تسوناىوشى - أن ينتهى دون نهاية مأساوية غريبة كما بدأها هذا الشوجون الغريب الأطوار بأشياء غريبة مثل قراره بحماية الحيوانات والمخلوقات الأخرى من غير الإنسان فقدر بذلك حياة اليابانيين آنذاك، والحادثة التى اختتم بها عصر الجنروكو أحداثه قبل نهايته بعام واحد أى فى عام ١٧٠٣م هى الحكم على ٤٧ من أتباع حاكم مقاطعة أكو أو Akou (جنوب غرب محافظة هيوجو) بالانتحار على طريقة الهاراكيرى وذلك لقتلهم كيرايوشى ناكا Kirayoshi Naka (١٦٤١م - ١٧٠٣م) الذى كان يشغل منصب يشبه الآن كبير ياوران الباكفو ومسئول المراسم والطقوس فيها، وذلك آخذا بالثأر لسيدهم أسانو ناجانورى حاكم منطقة أكو أو Asano Naganori (١٦٦٧م - ١٧٠١م) وكان ناجانورى قد عُين فى إبريل عام ١٧٠١م فى وظيفة مسئول الاستقبال المباشر فى البلاط الإمبراطورى، وطلب ناجانورى من كيرايوشى أن يدرجه على أداء المراسم حيث إن الأخير عمل فى وظيفة ياوران الإمبراطور وكذلك كممثل للشوجون فى مختلف المناسبات ، ولكن كان رد كيرايوشى على طلب ناجانورى فظا فغضب

ناجانورى وأخرج خنجره من غمده وجرح كيراىوشى . وعليه أمر كيراىوشى ذو السلطة الأعلى غريمه ناجانورى بأن يقتل نفسه على طريقة الهاراكيرى أى بشق بطنه بالخنجر، ولم يكتف بذلك بل أمر بمصادرة أملاكه كلها، وقد أدهش وأحزن هذا الحادث سكان مدينة أيدو وكذلك كل اليابانيين آنذاك.

وردا على قتل ناجانورى هاجم ٤٧ من أتباعه الذين جاءوا من منطقة أكواو قصر كيراىوشى فى أيدو وقتلوه، ولكن بعض المراجع تذكر أن عدد من قاموا بالهجوم على القصر كانوا ٤٦ محاربا فقط وليس ٤٧ وذلك لأن أحدهم يدعى تراساكا نوبويوكى Terasaka Nobuyuki (١٦٦٥م - ١٧٤٧م) هرب قبل تنفيذ عملية الهجوم على القصر واغتيال صاحبه، ولذلك نجد أن سنة وفاته تختلف كثيرا عن وقت إعدام الساموراي الآخرين، وهكذا استطاع هؤلاء الساموراي الأوفياء لسيدهم الأخذ بثأره.

ولم تلبث أخبار هذه الحادثة أن انتشرت بسرعة عن طريق الصحف الطينية التى كانت تستخدم آنذاك، وعندما عرف أهل أيدو ما حدث أثنى الكثير منهم سواء كانوا من الساموراي أو من المواطنين على ما فعله هؤلاء المحاربون الأوفياء لسيدهم، كذلك مجد المفكرون والكتاب الكونفوشيوسيون هذا الفعل الشجاع لمحاربى أكواو وكتب الأديب موروكيو صو Muro Kyūsō (١٦٥٨م - ١٧٣٤م) قصة هؤلاء المحاربين الأوفياء مجددا فعلتهم فى عمل أدبى اسمه «سجلات محاربى أكواو الأوفياء».

وكان من بين أعضاء حكومة الباكفو أيضا من يتعاطف مع هؤلاء

المحاربين الأوفياء، ولكن إذا ما كان ما أقدم عليه هؤلاء المحاربون من الناحية الأخلاقية عملا يدل على الولاء والوفاء لمعطيات ذلك الزمان، إلا إنه من الناحية القانونية لم يكن مقبولاً، حيث أُعتبروا جميعاً متهمين بإحداث فوضى وصخب في مدينة إيدو، وظلت حكومة الباكفو فى حيرة من أمرها فى كيفية التصرف مع هؤلاء المحاربين حتى صدر الحكم فى فبراير من عام ١٧٠٢م بأمرهم بقتل أنفسهم على طريقة شق البطن.

وبعد اثنى عشر يوماً فقط من موت هؤلاء المحاربين الشجعان تم عرض هذه الحادثة فى شكل مسرحية عرضت فى مسرح ناكامورا بالعاصمة إيدو، ولكن سرعان ما تم وقف هذا العرض بعد ثلاثة أيام فقط، وقد أدلى بدلوه فى تصوير هذه الحادثة الكاتب المسرحى الشهير تشيكاماتسو مونزايمون فى شكل مسرحية من نوع الكابوكى وكذلك الكاتب المسرحى تاكيدا إيزومو (Takeda Izumo) (١٦٩١م - ١٧٥٦م) ساهم بكتابة مسرحية من نوع الجورورى تخلد هذه الواقعة ونالت كلتا المسرحيتين إعجاب أهالى إيدو كثيراً، ولكن كلا الكاتبين خشيَا من غضبة الباكفو فجعلا أحداث المسرحيتين تجرى فى عصر موروماتشى الذى يسبق عصر إيدو، وقد تم كتابة عدة مسرحيات من نوع الكابوكى والجورورى اتخذت من أحداث واقعة أخذ الـ ٤٧ محارباً لثأر سيدهم مادتها، وقد سميت هذه المسرحيات بـ «خزينة ولاء عصر جنروكو» Genroku Chūshingura. وهكذا انتهى عصر الجنروكو وفترة حكم الشوجون الخامس طوكوجاوا تشونايشى بمأساة ظلت تشغل اليابانيين لوقت طويل.

٦ - تصحيح المسار على يد الشوجون ومستشاره :

أما الشوجون فهو الشوجون السادس طوكوجاوا إينوبو (Ienobu) (١٦٦٢م - ١٧١٢م) الذى تولى منصب الشوجونية بعد وفاة عمه تسونايشي وذلك من عام ١٧٠٩م وحتى عام ١٧١٢م أى لمدة قصيرة أقل من أربع سنوات، وهو ابن تسونا شيجي Tsunashige (١٦٤٤م - ١٦٧٨م) الذى توفى ولم يزل فى الرابعة والثلاثين من عمره، وكان حاكماً على مقاطعة كوفو (تقع فى منتصف محافظة ياماناشى) وعليه أصبح ابنه إينوبو حاكماً على كوفو ولم يزل فى السادسة عشرة من عمره، وفيما بعد أصبح يعرف بوزير كوفو، ولأن اشوجون تسونايشي لم يكن له عقب فقد تم انتقال إينوبو إلى الجناح الغربى فى قلعة إيدو، ووجود سليل أسرة طوكوجاوا فى هذا الجناح يعنى أنه أصبح الوريث الشرعى للشوجون لأنه فى حالة وفاة الشوجون الحالى يصبح على الفور الشوجون الجديد وقد حدث هذا مع إينوبو فى يناير من ١٧٠٩م.

وهذا الشوجون السادس كان محباً لشعر الوكا وقارئاً لمسرحيات النو (نوع من المسرحيات كانت تغلب عليها الأحداث الحزينة) وكذلك كان ضليعاً فى العلوم الكونفوشية، وكان أستاذه فى هذه العلوم العالم والسياسى الفذ أراى هاكوسيكى Arai Hakuseki (١٦٥٧م - ١٧٢٥م) ويكفى أن نعرف أن أراى قد ألقى ما يزيد على ألف ومائتى محاضرة على إينوبو منذ عام ١٦٩٢م (٦ من جنروكو) وحتى وفاة إينوبو عام ١٧٠٩م لنذكر مدى تأثير هذا العالم الكونفوشى فى الشوجون إينوبو سواء من الناحية العلمية والثقافية أو فى الناحية السياسية واتخاذ القرارات.

ولم يكن تأثير أراى هاكوسيكى فى إيبينوبو من فراغ فقد كان عالما فذا بحق وأفردت له صفحات عديدة فى كتب التاريخ نظرا لعلمه الغزير، وفى الثالثة من عمره استطاع كتابة الحروف اليابانية الصعبة، وفى سن التاسعة كان والده يكلفه بالتدريب على كتابة عدد كبير من حروف أو بالأحرى من الأشكال الصينية المعقدة كواجب يومي، وكان يسكب المياه على رأسه حتى لا ينام دون حفظها، وقد زاد اهتمامه بالعلم واجتهاده فيه بعد أن وصل إلى سن الثانية عشرة حينما ترك والده الخدمة الحربية (Ronin) لدى بيت حاكم مقاطعة كورورى Kururihan (تقع فى محافظة تشيبا) ومن ثم ساءت أحوال والده المادية مما استلزم من الصبى هاكوسيكى اجتهادا زائدا، وفى هذه الأثناء عرض عليه تاجرا غنيا يدعى كاوامورو زويكن Kuwamuru Zuiken (١٦١٨م - ١٦٩٩م) أن يزوجه حفيدته فى مقابل مساعدته ماديا، ولكن الصبى المعتز باجتهاده وعلمه رفض هذا العرض المغرى الذى لو عرض على أى شخص آخر لما رفض على الإطلاق.

وفى سن السادسة والعشرين التحق بالخدمة كساموراي بدائرة المستشار هوتا ماساطوشى Hotta Masatoshi (١٦٣٤م - ١٦٨٤م) وظل يعمل فى خدمة هذا المستشار الكبير حتى تم اغتياله فى عام ١٦٨٤م، وخلال خدمة أراى كمحارب عند هوتا لم يترك اجتهاده العلمى بل درس الكنفوشية الجديدة على يد العالم الكونفوشى كينوشيتا جون آن Kinoshita Junan (١٦٢١م - ١٦٩٨م) وأصبح أراى أهم تلميذ من تلاميذ جون آن العشرة (Mokumon no Jittetsu) وبتوصية من العالم جون آ. استطاع أراى الدخول فى خدمة طوكوجاوا تسوناطومى

(إيبنوبو فيما بعد) . ولكن بعد النشاط السياسى الذى أظهره أراى كما سيجئ الحديث فى عهد إيبنوبو الذى لم يدم أكثر من أربع سنوات ، استقال من جميع مناصبه وساء حظه كثيرا ، إلا إنه على الرغم من ذلك لم يترك الكتابة فكتب سيرته الذاتية وأنجز كتبا أخرى فى التاريخ وعلم اللغة وكذلك أبحاثا فى أحوال الغرب .

وهكذا ظهرت شخصيتان بارزتان فى تاريخ الباكفو بعد وفاة الشوجون الخامس تسونايوشى ، واستمر نشاط هاتين الشخصيتين لفترة قصيرة إلى حد كبير كما ذكرنا آنفا إلا إنه على الرغم من ذلك كانت فترة مثمرة جدا واتخذت فيها قرارات هامة للغاية وهى كالتالى :

أولا : كانت أول فرامانات الشوجون الجديد إيبنوبو هو إلغاء قانون حماية الحيوان وغيره من المخلوقات فى يناير ١٧٠٩م أى فى نفس الشهر الذى توفى فيه تسونايوشى ، ذلك القانون الذى سبب للمواطنين الكثير من الكدر والمتاعب ، وقد أحدث هذا الإلغاء الكثير من الحبور والسعادة فى قلوب الناس الذين اعتبروا هذا الإجراء علامة على أن سياسة الشوجون الجديد سوف تكون صالحة ومغايرة لسياسة سلفه تسونايوشى ، ومن الجدير بالذكر هنا أن إيبنوبو أصدر هذا القرار بمحض إرادته ولم يكن تأثير المستشار أراى هاكوسيكى قد ظهر بعد حيث إن ظهوره وتأثيره فى سياسة الدولة كان بعد أن تولى منصبه فى يونيو فى نفس العام (١٧٠٩م).

ثانيا : بعد أن تولى هاكوسيكى منصب المستشار بدأ فى إعداد تعديل فى قانون التحكم فى المحاربين ، والحقيقة أن عملية تعديل وتغيير هذا القانون كانت تتم دائما مع تغيير الشوجون ، ففي إبريل ١٧١٠م

طلب الشوجون إيبينوبو من مستشاره إعداد مسودة لتعديل قانون المحاربين بالتوازي مع إصلاح السياسة الفاسدة التي كان يطبقها الشوجون السابق ، ولكن الجديد في قانون المحاربين هذه المرة كان في الشكل والمضمون ، فمن الناحية الشكلية تم استخدام حروف الكانا اليابانية بدلا من الأشكال الصينية التي كانت مستخدمة منذ القدم في كتابة الفرمانات والتقارير والمراسلات الحكومية ، ومن ناحية المضمون نجد التعبير واضحا مثلا في المادة الأولى من القانون التي تقول إنه يجب تحديد المبادئ التي يسير عليها الناس وكذلك يجب تصحيح العادات السيئة ، وفي المادة الثانية نجد القانون يؤكد على ضرورة بذل الدايميوات كل جهدهم من أجل سياسة تدعو لإزالة كل أسباب التذمر والغضب والتعاب التي لدى المواطنين ، وفي المادة الثانية عشرة نجد أن القانون يؤكد على أن كل فرد عليه أن يوفق بين الرفاهية والتشرف كل حسب وضعه الاجتماعي والمادى ، وهكذا نجد أن المادة الأولى والمادة الثانية عشرة تعتمدان على الأفكار الكنفوشوسية التي تحترم الطقوس وكذلك تؤكد على ضرورة التمييز بين الأوضاع الاجتماعية للناس ، وأكد القانون الجديد أو بالأحرى التعديل الجديد لقانون المحاربين من خلال المادة الثانية على الاهتمام الشديد بالسياسة الرحيمة بالمواطنين والتزام الموظفين العموميين بهذه السياسة ، وكذلك على إلزام رؤساء الموظفين العموميين بهذه السياسة ، وكذلك على إلزام رؤساء الموظفين العموميين بحماية الأخلاق والمبادئ العامة.

ثالثا: انعكست السياسة الجديدة للشوجون السادس والتي اعتمدت على أفكار الكنفوشية الجديدة على علاقة اليابان على جارتها كوريا

وطريقة المعاملة مع وفودها لليابان، وكانت أهم التغييرات التي حدثت هي ضرورة مخاطبة الشوجون في الخطابات الرسمية بلقب «ملك اليابان» وليس «عظيم مملكة اليابان» وأصبحت تلك المشكلة هي إحدى المشاكل التي واجهتها الدولة، وكان هناك تحول آخر يتعلق بالفكر الكنفوشى وهو طريقة معاملة الوفود وضرورة التوفير فى النفقات التي تصرف على هذه الوفود القادمة لليابان.

رابعاً: من أهم التحديات التي واجهت أراى هي عملية إصلاح الفساد المالى التي ورثها الشوجون السادس إيينوبو عن سلفه تسونايوشى، وكانت أهم ما يمثله هذا الفساد هو النقود المزيفة سواء كانت ذهبية أم فضية، وكان المسئول عن عملية التزييف هذه أوجى وارا شيجى هيدي Ogiwara Shigehide (١٦٥٨م - ١٧١٣م) وكان فى منصب يوازى وزير الخزانة، وقد تسبب هذا الرجل منذ إجراءه لإعادة سك العملة فى ارتفاع الأسعار مما جعل عامة الشعب يعانون أشد المعاناة، بل إنه كان يأخذ الرشاوى من التجار عند كل مرة كان يقوم فيها بسك العملة وهذا كله سبب ضيقاً شديداً للمستشار آراى.

فقد كان آراى يرى أن معظم المشاكل الاقتصادية التي تمر بها البلاد كانت بسبب النقود المزيفة والسيئة الصنع التي صنعت فى فترة جنروكو، وكان يريد أن تعود النقود المتداولة فى جودتها مثل النقود التي صنعت فى فترة كيتشو Keicho (١٥٩٦م - ١٦١٥م) أى قبل نحو قرن مضى من فترة جنروكو، ولذلك شدد آراى فى مواجهته ضد أوجى ورار حتى استطاع إقصاءه عن منصبه قبل شهر واحد من وفاة الشوجون إيينوبو وذلك فى أكتوبر ١٧١٢م. ولكن بعد أن استطاع أوجى وارا أن

يجمع رشاوى ضخمة بلغت مائتين وستين ألف ريو، ولكن برغم كل هذا فلم تؤدي هذه الإجراءات الإصلاحية من قبل أراى هاكوسيكى إلى إنعاش اقتصاد الباكفو. وكذلك لم تجلب الاستقرار لحياة عامة الشعب، ذلك لأن الدقة فى صنع وسك العملة وجعلها ذات جودة عالية أدى إلى قلة كميتها بالسوق فأعاق ذلك حركة التداول فى العملة، وأدى الكساد إلى معاناة شديدة للمواطنين، وهنا ظهر التساؤل عن مدى فاعلية عالم قدير مثل أراى فى العملية الاقتصادية، وهل كان أراى أفضل وأجدى لاقتصاد البلاد من رجل يفهم جيدا اقتصاديات السوق فاستطاع فى فترة من الفترات إنقاذ الباكفو من الإفلاس.

خامسا : أما المشكلة الأخرى والأخيرة التى أقضت مضجع المستشار أراى فى أواخر عهده بالمستشارية هى كيفية التحكم فى التجارة الخارجية بميناء ناجاساكى، وفى هذه الفترة كانت التجارة مع كل من هولندا والصين تكلف اليابان كميات ضخمة من الذهب والفضة والنحاس كانت تصدر خارج البلاد مما يعنى إفقاد اليابان لثروتها بشكل واضح. وقد أجرى أراى فحصا بنفسه عن كمية الذهب والفضة التى تم تصديرها خارج اليابان خلال المائة عام الأولى من عصر إيدو فوجد أن ربع الذهب الذى تمتلكه اليابان وثلاثة أرباع الفضة قد تم تصديرها، ووجد أنه إذا استمر تصدير الذهب والفضة بنفس هذه المقادير خلال المائة عام التالية من هذا العصر فهذا يعنى أن اليابان سوف تفقد كل ما لديها من هذين المعدنين النفيسين، ولذلك رأى أراى أنه لابد من اتخاذ إجراء معين.

وتلخص هذا في إصدار ما عرف بـ «فرمان ناجاساكي الجديد» وطبقا لهذا الفرمان تم تحديد عدد السفن التجارية الأجنبية التي يتم التعامل معها، وكذلك تم تحديد كميات النحاس التي يتم تصديرها، وإلى جانب ذلك تم إقرار منع تهريب البضائع وأيضا تحديد كيفية توزيع الأرباح على سكان مدينة ناجاساكي يمثل هذا التنظيم الصارم أصبح النظام التجارى الذى طبق فى ناجاساكي هو أكثر النظم التجارية فى عهد إيدو تنظيما وإحكاما، وحاول أراى عن طريق هذه السياسة حماية ثروة البلاد من الذهب والفضة من الضياع، ولكن من ناحية أخرى انعكست هذه السياسة الصارمة على الاقتصاد بشكل عام فأعاقت تطوره، ولكن لم يكن هناك شك فى أن أراى كان يفكر بجدية من أجل استقرار اقتصاد الباكفو وضمان حياة أفضل للمواطنين الذين عانوا كثيرا من الفساد قبل عهده.

٧- نهاية الشوجون السادس والمستشار العالم:

بعد ولاية استمرت ثلاث سنوات وعشرة أشهر توفى الشوجون السادس طوكوجاوا إييينوبو، وخلال هذه الفترة القصيرة من الحكم استطاع إنجاز الكثير من الأعمال كما رأينا، وترك وريثه إيبيتسوجو وهو لم يزل فى الرابعة من عمره ليصبح الشوجون السابع اسما فقط، بالطبع فقد كان أراى هاكوسيكى هو الذى يدير شئون البلاد حتى توفى هذا الشوجون الصغير وهو لم يزل فى الثامنة من عمره، وعندئذ تم توليه حاكم مقاطعة كيشو (محافظة واكاباما) طوكوجاوا يوشيمونى Yoshimune (١٦٨٤م - ١٧٥١م) والذى امتدت فترة ولايته أو شوجونيته منذ عام ١٧١٦م إلى عام ١٧٥٤م وهذا الشوجون سوف يصبح من أهم الشوجونات الذين حكموا فى عصر إيدو.

ومع تولى يوشيموتى الشوجونية انسحب أراى هاكوسيكى من حلبة السياسة بعد أن أمضى فيها حوالى ثمانى سنوات أربع منهم فى خدمة الشوجون السادس إيينوبو وأربع أخر فى خدمة أو بالأحرى فى الوصاية على الشوجون الصغير إبيتسوجو، وقد سميت السياسة الهادئة التى اتخذها المستشار أراى بسياسة «شوطوكو Shotoku» على اسم الفترة التقويمية الإمبراطورية التى قابلتها زمنيا، وقد حاول أراى قدر جهده من خلال هذه السياسة أن يسير عكس السياسة الهادئة فى عصر جنروكو والتى كانت اسما فقط بأنها سياسة الأخلاق ولكن بسبب التصرفات غير المسئولة والأنانية التى اتسم بها حكم الشوجون تسوناويوشى فقد فقدت هذه السياسة كل معانى الأخلاق، ولكن برغم ذلك لم يستطع أيضا أراى هاكوسيكى ذلك العالم الكنفوشى أن يحقق ما يريده من خلال تطبيق التعاليم الكنفوشوسية الجميلة أن يصلح من اقتصاد الباكفو أو أن ينهى انحلال فترة جنروكو، وذلك لأن أخلاقيات الكونفوشوسية اصطدمت بالواقع، ولذلك كان على ثورات التصحيح أن تنتظر قدوم شوجون أقوى ممن سبقوا، وهذا ما سوف نراه من خلال حديثنا عن الشوجون الثامن طوكوجاوا يوشيمونى فى الفصل التالى.

* * *